سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عدنان زرزور
في الإعلام والثقافة والفكر المعاصر
المجموعة الثانية

مصطفى السباعي

رجل الوطنية والعروبة والإسلام

سلسلة الأعمال الكاملة للدكتور عدنان زرزور
في الإعلام والثقافة والفكر المعاصر
المجموعة الثانية

مصطفى السباعي

رجل الوطنية والعروبة والإسلام

عدنان زرزور

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى روح والدي

الشيخ محمد بن الشيخ ياسين زرزور

الذي غاب عني منذ نحو عقدين وجهُهُ..
ولم تغب يوماً ذكراه.
والذي كان شغوفاً بالعلم والعلماء، والدعوة والدعاة.
أسأل الله تعالى أن يرفع مقامه عنده.
وأن يجعلني من حسناته يوم الدين

عدنان

رَبِّ يَسِّرْ وَأَعِنْ

فتًـى لا يضـمُّ القلـبُ هِمَّــاتِ قلبِـه ... ولو ضَمَّها قلبٌ لما ضمّها صَدْرُ

أبو الطيب المتنبي

يا ســائلي عنه لمَّـا جئتُ أســألُه ... فـإنَّـه الـرَّجـلُ العـاري عـن العـارِ
لـو جئتَـه لـرأيـتَ النَّـاسَ فـي رَجُـلٍ ... والدَّهْرَ في ساعة، والأرضَ في دارِ

أبو العلاء المعري

وقد سئل عن الشريف المرتضى
بعد أن حضر مجلساً من مجالسه

تَشَــرَّفُ عــدنـــانٌ بــه لا ربيعـــةٌ ... وتفتخَـرُ الـدُّنيـا بـه لا العَـوَاصِـمُ

أبو الطيب المتنبي

قلـبٌ يُطِـلُّ علـى أفكـارِه، ويَـدٌ ... تمْضِي الأمورَ، ونفسٌ لهوُها التَّعَبُ

البحتري

فـابكـوا لمـا سَلَـبَ الزَّمـانُ ووطِّنـوا ... للـدَّهْـرِ أنفُسَكُـم علـى مـا يَسْلُـبُ
وأرى لكــم أن تكتبــوا أنفــاسَــه ... إنْ كــانـتِ الأنفـاسُ ممَّـا يُكْتَـبُ

ابن الجواليقي

مَـن يبلـغ (الحنفـاءَ) أنَّ صفـوفَهـم ... مــنْ بعـدِه صلَّــتْ بغيــرِ إمَــامِ!
ومــدارسَ الفقهـــاءِ أنَّ فصيحَهـــا ... عـــادتْ عــروبتُــه إلــى الإعْجَــام
ودِعــايــةَ الإصــلاحِ أنَّ لســانَهــا ... قعَــدَ الكَــلالُ بــهِ عــن الإفْحَــامِ

محمد النجمي

من رثائه للسيد محمد رشيد رضا

وقــالــوا (الإمــام) قـضـى نـحبَـه ... وصيحـةُ مَـن قــد نَعـاه علَـت
فقـلـت فمـا واحـدٌ قــد قـضـى ... ولـكنـه أمّـــةٌ قــــد خَلـت

هذا العلم

● لقد كان السباعي أستاذ جيل، وقائد رعيل، وباعث نهضـة، وكـان خطيب جماهير، ومصلحاً كبيراً، وكاتبـاً أديباً، ومؤلفاً منتجاً. وقلما تجتمع هذه الصفات في رجل واحد، وقد جمعها الله فيه.

أ. محمد المبارك

عميد كلية الشريعة وعالم الاجتماع برلماني ووزير

● لقد كـان الفقيد الراحل من الأفذاذ النادرين في تاريخ القرون والأجيال. . . قلَّ أن يجود بمثله الزمان. وقد لا يجود!.

أ. محمد خير الجلاد

أحد الدعاة والمربين الأفذاذ في تاريخ سورية الحديث

● كان يجمع إلى عاطفة جهاده القوية: علماً غزيراً، وأدباً جمّاً. وقد أعطاه الله قلباً جريئاً، وقلماً سيالاً، ولساناً مخرساً لكل من ناصب الإسلام والمسلمين العداء.

أ. أبو الأعلى المودودي

رئيس الجماعة الإسلامية بباكستان

● إنه نموذج العالم الديني، والداعية الإسلامي، في هذا العصر القلق الذي أصبح لا يطيق جفاف الفقه، وخشونة الدعوة، وضيق الأفق، وجمود الثقافة.

أ. أبو الحسن الندوي

عميد ندوة العلماء بالهند وأحد حكماء الإسلام

● لقد تعرَّفت بالفقيد في صيف عام ١٩٥٨م.. ومنذ الكلمات الأولى شعرت بأنني تعرفت على رجل يحمل في أحشائه ناراً!.. نار القضية المقدسة التي عاش من أجلها مصطفى السباعي. إن شخص السباعي قد انتقل، ولكن عمله سيبقى مفعوله جارياً في تشييد حضارة الإسلام.

أ. مالك بن نبي

مفكر وفليسوف الحضارة

● ما أكبرَ هذه الهمة المتسعة المتشعبة التي أوتيها! إنها لو قسمت عزماتُها ومقاصدها على عشرين شاباً من ذوي الجد لضاقوا بأدائها والنهوض بها ذرعاً، وناؤوا بها ثقلاً.

أ. الشيخ: عبد الفتاح أبو غدة

العلّامة المحدِّث أشهر المحققين ببلاد الشام

● لقد عاش للإسلام في أوضح معانيه، وعمل للإسلام في زمن من أحلك أزمانه.

أ. د. عمر فروخ

الموسوعي اللبناني عضو المجامع اللغوية

● عرفته أول مَقْدَمي حلب الشهباء، بل إلى ديار الشام كلها قبل تسعة عشر عاماً (عام ١٩٤٥م) فكان أول ما لفت نفسي إليه: ذلك المزيج العجيب من وداعة سمته وسكون ملامحه... ثم من زئيره ساعة وقف خطيباً، زاده فيها إلى بأس الشكيمة: أصالة المعدن، وعنفوان العزم، ونذير التمرد على كل عاديات البغي في طريق دعوة الإسلام.

د. سعيد رمضان

الكاتب والداعية والإعلامي المصري

● إذا ذكرتم فضيلة الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، فاذكروا رجلاً سار في مقدمة الرعيل الأول من فرسان اليقظة الحديثة في دنيا العرب، حيث المسالك وعرة، والعقبات في وجه المصلحين أكثر من أن تحصى؛ فما لوى عنان جواده يمنة أو يسرة، ولا ارتدَّ منهوكاً من المقدمة إلى المؤخرة، بل ظل طيلة حياته ضميراً حراً لا يُسخَّر، وجبيناً عالياً لا يعفّر.

أ. د. محمد الفاضل

أستاذ القانون الجزائي بكلية الحقوق

ورئيس جامعة دمشق ووزير العدل

● وإنكم لتكبرون معي رجلاً ملئت نفسه إيماناً، وعقله علماً، وروحه فيضاً، وجرى في الحياة جاداً لا هازلاً، وعاملاً لا متراخياً، وكريمـاً لا بخيلاً، وقويـاً لا ضعيفاً، وإنسـاناً لا جلفاً، على أحسـن ما يكون الجدّ، وخير ما يكون العمل، وأجود ما يكون الكرم، وأشد ما تكون القوة، وأرفق ما تكون الإنسانية.

أ. د. يوسف العش

عميد كلية الشريعة والمؤرخ وعالم اللغات والمكتبات

● إنّ القائـد يُبكى إن فُقد بين القادة، فكيف لا يُبكى وقـد نـدر القادة؟ والقائد يُبكى إذا خلا مكانه، فكيف لا يُبكى إذا كان فريداً بين أقرانه؟ فالحزن عليك يا أبا حسّان: حزنٌ على فقد القائد، وندرة القائد، ونوعية القائد.

د. طبيب حسن هويدي

الداعية والكاتب والمربي من دير الزور

● سيظل مصطفى السباعي رمزاً بارزاً، وعلامة مضيئة في مسيرة الخير والبر. وستظل أجيال من الشباب تتجه إليه، وتغترف من فكره وعلمه، وتستهدي به كنموذج عالٍ للقائد الملهم، والمجاهد المؤمن. ويوم يزول الزيف، وتنحسر أمواج الباطل، وتنهار الكيانات الدخيلة؛ سيتبين لأجيال قادمة أن السباعي قد عمل لهذه النتيجة الباهرة ميتاً بقلمه وفكره، كما عمل لها حياً بعقله ومواهبه وحركته الدائبة.

أ. كامل الشريف

الداعية والمجاهد والوزير الأردني

● مصطفى السباعي كان أمة في فرد.

أ.د. معروف الدوليبي

أستاذ القانون الروماني بكلية الحقوق
برلماني ورئيس وزراء

مقدمة الطبعة الثالثة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله، وبعد:

فقد مضى على نشر هذا الكتاب -في طبعته الثانية بدار القلم- أكثر من خمسة عشر عامًا، ولم يكن في تقديري أن أعيد طبعه مرة أخرى، حتى كانت فكرة جمع الأعمال الكاملة التي اقترحها عليَّ منذ سنوات أحد الإخوة الزملاء، حفظه الله تعالى وفك أسره وأدام به النفع، وقد رسم لها أن تطبع في مجموعتين؛ الأولى: خاصة بالتفسير وعلوم القرآن والحديث، وتضم الثانية سائر الأعمال (في التراجم والسير، والعقيدة، والثقافة، والحضارة، والفكر المعاصر، وحقوق الإنسان).

وقد مضى على طبع المجموعة الأولى -التي جاءت في اثني عشر مجلدًا- أكثر من عام، ونستهل الآن طبع المجموعة الثانية بالكتب الخاصة بالتراجم والسير، وأولها هذا المؤلَّف الخاص بشيخنا العلامة الدكتور مصطفى السباعي -رحمه الله تعالى-.

-٢-

أعدت النظر في الكتاب، فوجدتني قد وصفت فيه السباعي -في أكثر من موطن- بأنه رجل الوطنية والعروبة والإسلام، فآثرت أن يكون هذا الوصف في عنوان الكتاب .. في هذه الأيام السوداء والزمن الأغبر الذي يتعرض فيه الوطن والوطنية والعروبة والإسلام لأقسى المحن! وربما لم يتعرض شعب من الشعوب لمثل هذه المحن في تاريخه الطويل، وذلك بعد العدوان -الذي يمكن وصفه بالثلاثي- الذي شُنّ على الثورة السورية التي مضى عليها الآن أكثر من سبع سنوات، والتي لم يكن لها من مطلب سوى تحقيق «الحرية والكرامة والعدالة».

وبغض النظر عن دوافع «هؤلاء» الذين يشنون هذه الحرب، وعن ممارساتهم العسكرية والسياسية وسواها -مما لم يعد يجهله أحد- فإن مما يمكن قراءته بوضوح شديد: أن سورية وقعت فيما فعلته فيها فرنسا قبل نحو مائة عام! أو عادت إليه مرة أخرى.

لقد تحدثنا في هذا الكتاب -في المدخل التاريخي الذي دقّقنا كثيرًا فيما عرضناه فيه- عن «السياسة الطائفية التي اتبعتها فرنسا في حكم البلاد، والثقافة التبشيرية التي أشاعتها» وقلنا: إن الجنرال (غورو) -بوصفه المندوب السامي- أقام في سورته أربع دول، هي دولة حلب، ودولة دمشق، ودولة في اللاذقية باسم (حكومة العلويين)، وأخرى باسم (حكومة جبل الدروز)، ثم قرر للإسكندرون نظامًا خاصًّا، يشبه -إلى حد كبير- (الحكم الذاتي)، وتحدثنا بشيء من المتابعة والتفصيل لما نهض به مصطفى السباعي من مقاومة كلٍ من السياسة الطائفية والثقافة التبشيرية .. وقلنا: إنه ارتقى في فهم حق (المواطنة) إلى الحد الذي برئ معه من العصبية الحزبية والطائفية، فضلًا عن القومية والدينية.

ولهذا، فإن هذه الطبعة للكتاب تأتي في قدرها المقدور، وكأنه صيحة، أو صرخة مدوية في وجه الطائفية البغيضة الرعناء، والحزبية الرخيصة العمياء، وهذه -أي الحزبية- قد رفضها أيضًا وحاربها حربًا لا هوادة فيها، كما أوضحنا ذلك في هذا الكتاب.

-٣-

رأى بعض الإخوة القراء أن حديثنا في الكتاب -في المدخل المشار إليه- عما أسميناه: «الدائرة الجامعة»، وقلنا فيه: «إن الدائرة الحضارية لكافّة الطوائف المذهبية والدينية والعرقية لن تكون سوى الدائرة العربية الإسلامية في نهاية المطاف»، رأى أن حديثنا، أو إشارتنا فيه إلى (الطائفة العلوية) -أو النصيرية- لم يكن تعبيرًا عن جميع أبناء هذه الطائفة؛ بل جاء تعبيرًا عن شريحة منهم، بدليل أن ولاء الكثيرين من هؤلاء كان لفرنسا، ولبقاء الانتداب الفرنسي على البلاد، أو على «دولتهم» وكيانهم

الخاص. مع نزوعهم أو تأكيدهم -دينيًّا- لمعتقداتهم الباطنية، التي تقطع أي صلة لهم بالقرآن والإسلام (السنّي)، وذلك على عكس ما أثبتناه أو أشرنا إليه.

وقد صوّر لي أحد الإخوة القراء الباحثين -وكان واسع الاطلاع- صفحات قليلة من بعض المصادر العلمية، توضح حقيقة موقفهم، أو موقف جمهورهم من القضايا السياسية والدينية، وقمت -في هذه الطبعة- بإلحاقها بالكتاب، بدل ملحق الصور؛ ليطلع عليها القارئ، ويقارنها بالوثيقة التي نقلناها -في فقرة الدائرة الحضارية المشار إليها- من كتاب الدكتور ذوقان فرقرط، أحد أبناء الطائفة الدرزية في سورية، فيما أعتقد.

والمصدر الأول كتاب بعنوان: النصيرية «العلويون» عقائدهم - تاريخهم - واقعهم، تأليف الدكتور مجاهد الأمين.

والمصدر الثاني كتاب بعنوان: «النصيرية - دراسة تحليلية»، لمؤلفه تقي شرف الدين، وكلاهما مطبوع في لبنان، كما خَطّ الأخ الباحث بقلمه على هذه الأوراق.

-٤-

وبهذه المناسبة، فإن ما علّلنا به الشعارات القومية - السورية - والعربية - والوطنية، التي رفعتها الأحزاب الجديدة، أو الأحزاب (الأقلوية) الطائفية، هو نحو ما ذهب إليه الكاتب شرف الدين -في كتابه المشار إليه- أو قريب منه، والذي كتبه تعقيبًا على تقرير مرفوع إلى الخارجية الفرنسية بتاريخ ٢٥/ ٤/ ١٩٣٦، يقول التقرير الذي رفعه أبناء الطائفة المذكورة: «إن التنظيمات السياسية العشائرية التي تتألف من أربعة أحلاف عشائرية: الحدادون والخياطون والكلبية والمناورة، والتي كان اعتمادنا عليها لتشكيل العمود الفقري للاستقلال الذاتي، والتي يشكل زعماؤها أعضاء المجلس التمثيلي، بدأت الآن تفقد قدرتها، كما أخذت الدعاية الوحدوية الدمشقية تستقطب الزعماء العشائريين الثانويين الطموحين، هذا إضافة إلى أن انتشار التعليم الابتدائي صار يهدد الرابطة الباطنية القديمة التي لم يَعُد جهازنا الوعظي الساذج يرضي الأجيال القادمة» (ص ٩١).

ثم كرر هذا المعنى بشيء من التفصيل، تعقيبًا كذلك على الفقرة الأخيرة، التي جاءت في تقريرٍ مطوَّل، وضعه أحد الضباط الفرنسيين، ورفعه إلى وزير خارجية فرنسا أحدُ أعضاء مجلس النواب الفرنسي، بكتاب مؤرخ في ٢٨/ ٧/ ١٩٣٦، تقول هذه الفقرة:

«إن المجلس التمثيلي «لدولة اللاذقية»، الذي يضم سبعة عشر عضوًا، مقسّم وفق نسبة عدد السكان إلى ١٢ عضوًا نصيريًّا يؤيدون الاستقلال، و٥ يؤيدون الوحدة مع سورية، منهم ٣ من السنّة واثنان من النصيرية. وما كان أي من النصيرية ليطالب بالوحدة لولا بعض الاعتبارات الناتجة عن المنافسة الانتخابية» (ص ٩٧).

-٥-

ولكن السوريين الذين تجاوزوا هذا كله، وكتبوا تاريخهم الحديث بدماء شهدائهم -بدءًا بالشهيد يوسف العظمة- وقيادة زعمائهم السياسيين ومشايخهم الدينيين .. وعفّوا فيه على الطائفية والحزبية وسائر التقسيمات الدينية والعرقية، حتى الانقلاب العسكري عام ١٩٦٣، قادرون على استعادة هذا التاريخ أو استئنافه بعد هذه الفترة الظلامية التي استمرت من تاريخ هذه الانقلاب الحزبي المشئوم حتى قيام الثورة المجيدة.

لقد عرف هذا التاريخ الناصع، القريب بحساب الأمم والشعوب، كلًّا من هؤلاء الزعماء السياسيين: هاشم الأتاسي، وإبراهيم هنانو، وسعد الله الجابري (سعد زغلول سورية) ورشدي الكيخيا، وشكري القوتلي، وفارس الخوري، وعبد الرحمن الكيالي، ولطفي الحفار، وزكي الخطيب، ونصوح البخاري، وناظم القدسي، ونسيب البكري، وغيرهم.

وعرف كذلك كلًّا من هؤلاء القادة الدينيين، من المجاهدين وسواهم: طاهر الجزائري، وجمال الدين القاسمي، وعبد الرزاق البيطار، ورشيد رضا، ومحمد الأشمر، وبدر الدين الحسني، وكامل القصاب، وعلي الدقر، وحسن حبنكة الميداني، ومكي الكتاني، وأبو الخير الميداني، ومصطفى السباعي .. وغيرهم.

كما عرف مع هؤلاء جميعًا أولئك الذين كانوا طليعة الوعي بالعروبة، أو بحسب عبارة السيد محب الدين الخطيب الوعي «بعظمة قوميتهم العربية وبجلال الإسلام، ومفاخرهما»، وذلك مع تحولات سياسة الدولة العثمانية التي نزل بها الهرم، ونالت منها مؤامرات الأعداء، وانحدار هذه السياسة من العثمانية إلى الطورانية، بين يدي الانقلاب على السلطان عبد الحميد الثاني (عام ١٩٠٩م)، وفي أعقابه، والذي قاده - أي هذا الانقلاب- نفر من المشكوك في دينهم، وفي عثمانيتهم؛ بل في «تركيتهم»، حيث لم يكن من بينهم -كما يقول بعض المؤرخين- «واحد من أصل تركي صاف»!

ونذكر هنا من هؤلاء القادة والكتّاب الذين كانوا طليعة هذا الوعي: سليم الجزائري، وعبد الحميد الزهراوي، والسيد محب الدين الخطيب، ورفيق العظمة، وعبد الكريم الخليل، وسيف الدين الخطيب ... وسائر أعضاء جمعية النهضة العربية (التي أسست عام ١٩٠٦م).

بالإضافة إلى بعض رجالات الجمعيات الأخرى التي أسست في هذه الحقبة من التاريخ العثماني.

وربما أوجز شيخنا مصطفى السباعي تاريخ سورية الحديث هذا، بما كتبه عن الرئيس الجليل هاشم الأتاسي، يوم وفاته في الشهر الأخير من عام ١٩٦٠م، قال (رحمهما الله تعالى): «تاريخ أمّة، وأمجاد شعب، وعنوان كفاح، ورمز استقامة، ومَثَل نزاهة ... ذلك هو الفقيد العظيم هاشم الأتاسي».

نعم، ولسوف يستعيد الشعب السوري هذا التاريخ، أو يستأنفه، ويحيي شعلة الأمجاد، بعد هذا الليل البهيم والمحنة التي تداعى عليه فيها - في ظل «استدعاء» البعث الطائفي - لأعداء الحرية والكرامة والشرف والإنسانية، من مطايا (الشيطان) وجنود إبليس. ولا حول ولا قوة إلا بالله .. وإن غدًا لناظره قريب.

-٦-

في هذا الطبعة الثالثة للكتاب: دققت في بعض العبارات، وحذفت بضعة أسطر، كما أضفت بعض الفقرات، أهمها: صفة أخرى من سجايا الشيخ، تحدثنا فيها عن

كبريائه وعزة نفسه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وقد صادفتني مُدوَّنةً في بعض الأوراق، وحملت إليَّ، أو أعادتني إلى بعض المواقف والذكريات.

وبعدُ، فهذه سيرة رجل من عظماء سورية في تاريخها الحديث، ترتفع أمام الأجيال، وبخاصة أمام الجيل المعاصر الذي عاش ويعيش هذه الخطوب الجسام من قتل وتشريد وتهجير وتعذيب، واقتلاع للناس من بلدانهم وبيوتهم التي عاشوا فيها، والأرض التي درجوا عليها هم وآباؤهم من مئات السنين، لتسرق أو لتوهب!! لخلائق من الهمج الرعاع شذاذ الآفاق.

ترتفع هذه السيرة البطولية النيّرة لهذا العالم المجاهد، الذي لم تلن له قناة؛ لتشدّ من أزر أبناء هذا الجيل، وتقدم لهم شيئًا من العزاء، وكثيرًا من الأمل بوعد الله تعالى لهم ولهذه الأمة بالتمكين والنصر، مع إكبارها لكل من استشهد أو عذب أو لحقه ضيم، أو أصابه مكروه في هذه الثورة المجيدة، ثورة الحرية والكرامة وحقوق الإنسان.

وأشير أخيرًا إلى أن المجموعة الأولى من هذه الأعمال كنت قد قدمت لها بكلمة وجيزة، ولكنها لم تطبع. وأحب أن أنوّه هنا بما جاء فيها من شكر لولديّ العزيزين وأخويّ الكريمين: الدكتور أحمد سعد الدمنهوري (دكتور في التفسير وعلوم القرآن من جامعة الأزهر) والدكتور محمود سلامة (دكتور في العقيدة والفلسفة من كلية دار العلوم – جامعة القاهرة) اللذين قاما على جمع هذه الأعمال وإعدادها للنشر، وراجعا شطرًا مهمًا منها بعد أن تمت طباعتها الأولى منذ بضع سنين.

كما أكرر الشكر هنا لابنتي العزيزة الغالية الدكتورة أسماء التي واكبت هذا العمل في جميع مراحله، وما تزال تتابع كل ما يتصل بإخراجه ووضعه بين أيدي القراء بكل همّة وعزيمة ودأب.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

تركيا: مساء الثلاثاء

٢٢ من المحرم الحرام ١٤٤٠هـ = ٢ أيلول (سبتمبر) ٢٠١٨م.

مقدمة الطبعة الأولى

- ١ -

في الكلمة التي رثى بها الداعية المربي الأستاذ محمد خير الجلاّد أخاه وصديقه الأستاذ مصطفى السباعي - رحمهما الله تعالى - قال:

«ومهما يكن من شيء فإن شخصية الفقيد الراحل تحتاج إلى مؤلَّف خاص تبرزُ فيه مزاياه وصفاته التي أهَّلته ليكون مرشداً وموجهاً وقائداً، شريطة أن يكون الأسلوب الذي يُكتب فيه المؤلَّف مقصوداً به توجيه الأجيال الإسلامية الصاعدة؛ لتكون حياته قدوة وأسوة في مجال السلوك الإسلامي، لعلهم ينتهجون سبيله، ويستارون بسيرته؛ فتكون الجهود المبذولة لإخراج هذا المؤلَّف مباركة طيبة، وقبساً للأجيال المؤمنة في طريقها المحفوف بالحواجز والأشواك».

لا أدري إن كان هذا الكتاب الذي أضعه بين يدي القرّاء عن أستاذنا العلاّمة الداعية المجدِّد الشيخ مصطفى السباعي يفي بهذا الذي أشار إليه الأستاذ الجلاّد، أو ببعضه على أقل تقدير.. على أن الذي علمته وأنا أكتب فصول هذا الكتاب أن مؤلَّفاً واحداً لن يفي بشخصيته رحمه الله.

وقد أشرت في مواطن عدّة إلى جوانب هذه الشخصية التي تحتاج إلى أن تفرد بالبحث والدراسة. علماً بأن هذا الأمر كان قد تراءى لي عام ١٩٧٦م حين قدمت لكتابه: (عظماؤنا في التاريخ) فقلت: «الفصل الكتاب أو الكتاب السفر الكبير الذي لم يكتب بعد في حياة الأستاذ السباعي وأثره ومآثره ربما كتبه واحد أو أكثر من أبناء ذلك الرعيل»، وقد وصفت هذا الرعيل بأنه: «الرعيل الأول الذي صحب الأستاذ الرائد وأصغى إليه، ولبّى نداءه وتتلمذ عليه» حتى إذا قمت بذلك - وأنا لست من ذلك الرعيل - أيقنت أن الحاجة ماسّة إلى أكثر من كتاب.

ولا يعدو كتابي هذا أن يكون تعريفاً عاماً بنشأته ومراحل حياته. وبأهم إنجازاته في ميدان الدعوة الإسلامية في بلاد الشام، وإن شئت قلت: في ميادين

الجهاد والسياسة والعلم والقلم، وهي الميادين الرئيسة التي شملتها أو انطوت عليها الدعوة الإسلامية التي خاض غمارها وعاش تجربتها منذ أن كان طالباً وله من العمر ثلاثة عشر عاماً. . . إلى أن حمل لواء هذه الدعوة وقادها ولمّا يبلغ من عمره الثلاثين. . وقد قُدِّر له أن يتوفَّى وهو في التاسعة والأربعين. . رحمه الله.

-٢-

ويشاء الله تعالى أن يتأخر هذا الكتاب هذه السنوات الطوال؛ فقد مضى على المقدمة المشار إليها - التي تضمنت شذراتٍ من سيرة السباعي ومحاولةً لتفسير شخصيته - ربع قرن، كما مضى على وفاته رحمه الله ست وثلاثون سنة. وقد حملت هذه السنوات بالنسبة لكاتب هذه السطور فرق التجربة، إضافة إلى فارق السن. كما مثلت بالنسبة للأستاذ السباعي المدى - القريب - الذي شهد بعض توقّعاته أو نظراته المستقبلية.

وأرجو أن تكون هذه العوامل قد ساهمت في إعطاء الكاتب القدرة على تجلية هذه الشخصية، ومحاولة فهم نوازعها وما انطوت عليه من صفات الرجولة والكمال، بالإضافة إلى استعراض ما قامت به من أعمال. مع قناعتي بأن هذه الشخصية لا يمكن لها أن تقرأ قراءة واحدة، وأن يكون العنوان الذي يجمع صفاتها ومزاياها - أو المفتاح الذي ندخل به إلى رحابها - واحداً في نظر جميع الكتّاب والباحثين، نظراً لتعدد جوانب هذه الشخصية من جهة، ولأنه رحمه الله أصاب تفوقاً ملحوظاً في كل جانب من هذه الجوانب من جهة أخرى.

لقد شعرت بالسموّ وأنا أكتب عن السباعي، في الوقت الذي لا أخفي أن الدمع قد غلبني أمام بعض كلماته ومواقفه! كما أن مرارة الفجيعة بموته عادت لتحيا في نفسي من جديد. ولكنني لا أعتقد أن شيئاً من هذا أخلّ - أو يخلّ - بموضوعية الكاتب وبحياد المؤرخ أو الباحث، بل لعله من الأسباب المعينة على التفسير الصائب والتأريخ الصحيح. . لأن هذا يتيح الفرصة لفهم الشخصية والوقوف على بواعثها وأغراضها وأسباب تصرّفاتها. إنه (التفاعل) الذي يرتقي بالكاتب إلى مستوى التحليل والتعليل، وليس (الانفعال) الذي يحول بينه وبين صواب الرأي وصحة التفسير.

وهذا هو الفرق بين من يكتب عن الدعاة والقادة والثائرين